آمن ثم كفر

للاستاذ محمد على الطحمى . واعظ مركز بجع حمادى

استقبل ضحوة الشمس الفضفاضة بوجه كريه عابس ، واستقبل صحراء المدينة البيضاء الناصعة بآهات حائرة وأنات شجية ، كأن ضيقا ألم بصدره لا يدرى من أين أتى ولا كيف يزول ؟

وحاول الرجل أن يدفع عن نفسه هذا اللون الجديد من البؤس العارم والشقاء الخفى فما اهتدى ولا استطاع إلى ذلك سبيلا . .

لقد ضاقت عليه الصحراء بما رحبت . وضاقت شمسها الضاحكة أمام عينيه حتى كره نفسه ، وكره المجتمع الذى يعيش فيه ، وكره أن يقيم فى هذا الفقر المقيم حقا .

وبدا له أن يذهب إلى مجلس رسول الله عليه السلام عسى كرباته تنقشع وعسى أن يجد من ضيقة فرجا فالمجلس عامر بأجلاء الصحابة وفيهم محمد الرسول يتلو عليهم آيات الله فى رقة سامية وعذوبة حلوة وقوة تنفذ إلى مغالق القلوب والأفهام .

ويجلس الرجل فى خشوع وخضوع يكاد الأسى يهز جوانبه هزا ، ولكن هنالك شيئا لا يرى يدفعه دفعا ويغريه على التحرك والتململ ثم إلى الكلام .

وبدون وعى وبقصد ينطق الرجل قائلا أدع الله يارسول الله أن يرزقنى مالا .

إن الرجل فقير جدا ، والفقر خلق فيه عقدة نفسية جعلته يستريب فى حياته ويطلب المستحيل فى سبيل الحصول عليه لكى يثرى ويصبح من أولئك الناس الذين يزعمون أن المال هو كل شىء .

وفى هدوء عميق ينظر إليه الرسول نظرة خوف وعطف وإشفاق ، ويقول له قليل تؤدى حقه خير من كثير لا تطيقه ، فيلح الرجل إلحاحا ويسرف فى طلب الدعاء موكدا إن أغناه الله لا يبطر ولا يفسق ولا يشاكس أو يماطل فى حق الله .

ويرفع الرسول يديه ، وفى ضراعة إلى الله يقول : اللهم أغن ثعلبة فتتقبل السماء دعاءه ، فيصبح ثعلبة

غنيا فى أيام معدودات حتى لتضيق عرصات المدينة بغنمه التى نمت كما ينمو الدود فينزل بها واديا خصبا بعيدا عنها ويهجر مجلس رسول الله وينقطع عن صلاة الجمعة والجماعة ، وهذه طبيعة الإنسان الذى كان معسرا فأصبح ميسورا . . وتمر أيام وشهور وثعلبة منهمك أشد الانهماك ، ممعن كل الامعان فى تكثير الغنم وتنمية المال - والرسول يسأل لماذا تخلف ثعلبة عن الصلاة ؟ ؟ . فيقولون له شغلته الدنيا عن مشاهدة الجمعة والجماعة يا رسول الله - فيقول لهم . . ياويح ثعلبة . . وجاء موسم الصدقات ، وفيه تظهر العزائم الصادقة ذوات الايمان من العزائم الفاسدة المفعمة بالنفاق والمنافقين ، فبعث النبى رسله وزودهم بالكتب وأمرهم بجمع الزكاة - فاستقبلهم المؤمنون هاشين باشين وأعطوهم الصدقات ، ولما وصل ركابهم دار ثعلبة استقبلهم بالتهكم والسخرية والازدراء - وليته توقف عند هذا الحد بل أسرف فى التهكم وتزيد فى السخرية وأغلظ لهم فى الكلام ، ثم قال لهم إن الذى تطلبونه من زكاة عن لسان رسول الله لا يقل شيئا عن الجزية - إرجعوا من حيث أتيتم - فسوف لا أدفع لكم من مالى شيئا حتى أدبر أمرى وأرى رأيى - وهذه علل البخلاء .

أفضل الرسل راجعين وقبل أن يكلموا النبى عليه السلام قال لهم ياويح ثعلبة مرتين - وفى هذه الآونة الدقيقة من تاريخ الرسالة المحمدية ينزل جبريل على رسول الله ويقول له ، إن الله يقول لك فى حق ثعلبة . . « ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب » . . بلغ ثعلبة أن الله تعالى أنزل فى شأنه قرآنا يتوعده فيه فهرول إلى النبى ومعه الصدقة فأعرض عنه . وقال له : إن الله منعنى أن أقبل منك الصدقة فجعل يحثو التراب على رأسه ويصرخ تارة ويئن أخرى ، والنبى يقول له : هذا عملك ، أمرتك أولا أن ترضى بحية العامة من الناس فأبيت وطمعت أن يكون لك مال - فلما كان وترعرع تناسيت حق الله . حق اليتامى والحزانا فالق نصيبك من التوبيخ فى الدنيا ، ويوم القيامة يحكم الله وهو خير الحاكمين . حاول ثعلبة أن يستدر عطف رسول الله ليقبل منه الصدقة

فما استطاع ، وظل على أمره هذا حتى توفى رسول الله عليه السلام ، وفى خلافة أبى بكر رضى الله عنه جاء إليه يطلب منه أن يأخذ الصدقة فقال له الخليفة أبو بكر ردها الله ورسوله وأقبلها أنا هذا محال يا ثعلبة .

وفى خلافة عمر رضى الله عنه ذهب إليه راجيا أن يقبل منه الصدقة فأبى عمر إباء تاما ، وقال له يا ثعلبة يردها الله ورسول الله والصديق أبو بكر وتريد أن يقبلها عمر !!

كان لهذه الردود المتتالية أثرها فى ثعلبة فراح يؤنب نفسه ويلومها على جشعها وفظاظتها لدرجة أنه أصبح طريد رحمة الله - وكيف لا يطرد من رحمة الله ، وقد كان فقيرا معترا عليه فى الرزق ، فأصبح يلعب بالمال ، المال الذى طغاه وجعله يتخلف عن صلاة الجمعة والجماعة ومعاشرة رسول الله ؟؟

حقا لقد أصبح ثعلبة هذا أحاديث على ألسنة الصحابة ، وجميعهم يرمونه بنظرات حقيرة تكاد تذيبه ذوبانا وتجعله ينكمش رويدا رويدا عن المؤمنين وذلك من خزيه لذى أحاط به وجعله حشره فى أعين الناس

لقد ظن ثعلبة أن السعادة فى جمع المال فطلبه ليسعد فكان سببا فى شقائه وإعراض الله ورسوله والمسلمين عنه ، وأخيرا غضب ثعلبة على ثعلبة وحاول أن يصلح من شأنه ما أفسده المال فعجز وفاتته الفرصة فأصبح من المنافقين

إيه يا ثعلبة هل زقت لذائذ المال ؟ وكيف كان لك قنطرة هويت فيها بخزائك وطغيانك ؟؟ وكيف اتسمت بالشح وقبل اليوم كنت كريما متلافا ؟؟ . بل كيف أعرضت عن مجلس رسول الله وكنت ملازما له كالظل تسمع منه أطايب الكلم وعذب الحديث ؟ ؟

ليتك ما تطلعت إلى الدنيا ، ورضيت بالعيش النكد واللباس الخشن فى ظلال سعادة القلب وراحة الضمير وطاعة الله .

ليتك يا ثعلبة دفعت الزكاة . . زكاة المال ففزت بسعادة الدنيا والدين وكنت بطلا من أولئك الأبطال الذين لا يضنون ولا يبخلون . . إن الخليفة عثمان يرفض منك قبول الصدقة كما رفضها صاحباه من قبل وتموت فى خلافته بعد أن سجلت على نفسك الخزى والعار والنفاق .